إنسان عربي

قصة بقلم وجيه رضوان

القمر سهران ، وثلاث نجمات يمرحن سابحات على جناح غيمة ..
واضواء صامتة تموت فى الليل الاسود ...

ونحن فى فلسطين ، اربعة .

ومع ذلك نكاد نحسها بعيدة عنا ..حتى لكأن ترابها الذي نغفو عليه ، مسك يفوح من البعيد ، من اجواء مسحورة لا يطالها نظر ...

وحولنا اشباح غريبة .. وذكريات .. وخيال لاجئين .. وبقايا عز قديم .. واطياف افراح مضت !

والشمس تبدو بعيدة الشروق .. وانا ورفاقي بحاجة الى اجنحة !..

ويغني ياسين من بين الرفاق :

ـ يا جناحي الحبيب يا سلاحي .. فلسطين الشهيدة ، تسكن فى السماء .. وسنطير اليها لنعود معا !

ونصلي جميعنا ، انا ورفاقي .. وانسان غريب جاء من ارض قصية .. معنا !

انه معنا الان هذا الاسير اليهودي .. انه جندي ، ومن يدري ... لعله شارك فى الاعتداء على حدودنا ، وقتل برصاصه الكثير من الاصدقاء .. لقد دخلنا فلسطين لننتقم من اجلهم .. من اجل الابرياء الذين استشهدوا ببطولة .. وفى هجومنا على مستعمرة يهودية فى الشمال أسرنا هذا الجندي ..

الليل من حولنا.. ونحن نختبىء فى دغل كثيف.. والجندي اليهودي جالس الى جواري لا يجرؤ على النطق .. وعيناه تجولان بين اجفانه فى ذعر .. لقد تكوم على نفسه خائفا يرتجف ، يحاول جاهدا ان يمضغ لقمته .. ان منظره يوحي حقا بالرثاء ، فقد انهكناه مدة ثلاث ليال متواصلة وهو يسير معنا دون انقطاع ! انه مقيد لا يبدي حراكا ، وانا جالس قربه ، ويدي تمتد بين الفينة والفينة لتحشر بفمه قطعة خبز فيزدردها متباطئا وهو ينظر خائفا الى يدي كلما لامست ذقنه ، فهو يخشى ان الكمه بين لحظة واخرى !.

لقد جره عامر من قدميه مسافة طويلة ، وكان رأسه وجسده يصطدمان بحجارة الطريق .. وكان يصرخ بكلمات غير مفهومة ، وبدا جيدا انه يتالم .. وقد اغتاظ عامر كثيرا من صراخه ، ثم قذف به الى هاوية عميقة على جانب الطريق ، فتكوم فيها وجعل يمسح عن رأسه الدم الاحمر الذي فاض ...

ـ دماء قذرة ..

هتف عامر وهو ينظر اليه ..

ـ اننا نحمل دمنا مثلك ، ولكننا لا نهدره فى سبيل جريمة ... وسوف نجعلكم ترون جيدا البطولة الحقة الجديرة بالدماء ..

وسقط شعاع باهت من ضوء القمر ، فبدا دم الاسير اليهودي مختلطا بالتراب وقد صار وحلا اسود على جراحه ..

وصاح عامر مجنقا :

ـ هيا انهض .. أتظن اني سأرحمك ؟ لقد جئنا لنصنع شيئا رائعا.. وسيكون الثمن رهيبا ، وستدفعونه من وجودكم !

ثم سرنا ساعات طويلة فى الليل ووجهتنا مستعمرة يهودية فى الجنوب.. اني لا اذكر اسمها تماما ، ولكني اذكر جيدا ان نيرانا هائلة انبعثت من اعماقها .. فقد اقتحمناها بسرعة خاطفة ، وزرعنا الدمار فى اماكن عديدة .. لقد شئنا ان نجعل من ليلهم الاسود جحيما يحترقون فيه ، حتى يدفعوا ثمن الخطيئة التي اقترفوها ضد بلادنا وشعبها ، ولنعلن لهم ببطولة ان ثأرا عنيدا ينبع من ارضنا سوف يسحق جباههم .

وقفز عامر يمسك الاسير اليهودي من شعره ويرغمه على النظر الى دمار المستعمرة والى النيران التي كانت تأكلها بشراهة وهتف هازا اياه بعنف :

ـ هل نظرت هكذا فى غزة وفى دير ياسين وفى كل المجازر التي قمتم بها؟ هل نظرت هكذا الى الابرياء الذين ماتوا يومذاك ؟

ان الجلادين تسرهم كثيرا مثل هذه المشاهد .. انهم يعيشون من الدماء التي يسفحونها .. ان وجودهم يعيش ابدا فى المقابر .. ولكن الالم يأكل قلبك الآن ، وغدا سوف تعانون جميعا عذاب الاحتضار !

✶

يبدو انه قد شبع .. أو انه يتظاهر بالشبع .. لقد بدأ يخاف من عطاء فلسطين ، من خبزها .. بدأ يهرب من خيرها وخصبها ، وهم ، كل يهود العالم ، اقترفوا أبشع الجرائم عبر التاريخ ليغتصبوا هذه الارض .. وليبنوا اورشليم ! انهم لا يعيشون على الارض باسم الانسانية وان كانوا يتسترون بها .. لقد عادوا بعد ثلاثة الاف سنة ليبنوا اورشليم من جديد ، تماما بنفس الطريقة والاسلوب ، ولقد بنتها الشياطين فى العهود الاولى ، وها هم الان يعودون من جديد ! ولكن بأزياء السفاحين والمجرمين واللصوص ! ولم يتجرأوا على ان يصيروا بشرا ، ان ينتحلوا أزياء البشر ، فان « ابلستهم » ظلت قدرا مفروضا عليهم !

لقد كنا نعيش بسلام .. وكانت امامنا ايام جديدة زاهرة ، وكنا نحب الارض والخير والسلام .. ثم وجدنا انفسنا فجأة فى العراء ، بلا وطن ، وبلا مأوى ، وبلا سلام ! لقد داسوا قيمنا وجدفوا على خيراتنا ، واغتصبوا فلسطين بألف خيانة والف بصقة فى وجه الضمير العالمي !

ـ ماذا تريد ؟

اني لا افهم ماذا يتكلم ، واسمع لنطقه وقعا عجيبا ، واني لاتخيل مدهوشا كيف يعيشون فى اسرائيل .. اغلب الظن انه يريد ماء فهو يتلمظ بشفتيه !

ـ اعطني مطرة الماء يا احمد .. اليهودي عطشان !..

ـ ماذا تقول ؟

وانتفض احمد كالملدوغ :

ـ لقد اصبحت قديسا يا عزيزي .. انك تعامله مثل طفل بريء يطلب

حلوى .. لكم اود ان احمله الى رأس الجبل واقذفه من حالق .. ان حياتي قد تنطفىء في اية لحظة ، وامثاله على ارض فلسطين يهددونها .. ما جئت الى فلسطين لاغني لهم واسقيهم اقداح الخمر .

وابتسم ياسين وهو يربت على كتف الاسير اليهودي :

ـ لا تيأس .. سوف تموت سواء شربت أم لا .. لقد مات ابي ظمآنا .. كان يدلي الدلو الى البئر ، عندما صرعته رصاصة ، وكان ثمة جنود يهود ، ثم قذف احدهم قنبلة وشاهدت اشلاء ابي تتناثر وتستقر قطع منها على صفحة المياه ! اني اذكر ذلك تماما ، وكان سيحتفل ببلوغه الاربعين بعد اسبوع !

وعاد احمد يخاطب اليهودي :

ـ ولماذا لا تشرب من دمك ؟ ولماذا تتركه ينزف على ارض فلسطين ؟ اشربه .. اشربه .. لا تدنس الارض التي نموت من اجلها !..

كان اليهودي ينظر دون ان يفهم ما يجري وحين رفسه احمد تكوم على بعضه مذعورا وزحف يلتصق بي ..

وقهقه احمد :

ـ ماذا ؟ أتحسبه امك ؟ لقد قتل منكم اكثر من عشرة ، وفي كل مرة كان يجمع الاعشاب اليابسة ويحرقهم عليها ، لقد فعلتم بأهله هكذا ... لقد قتلوا ثم احرقوا ! ومع ذلك فهو يطعمك وهو يسألنا ماء حتى لا تموت من الظمأ !..

وضغط احمد على عنق اليهودي :

ـ انه انسان عربي .. هل تعرف من هو الانسان العربي ؟ انه هذا الذي بدأ يعلن وجوده ويبشر بالسلام .. وسوف ترونه نبيا جديدا يدعو لخير العالم !..

كانت بقع الدماء قد تجمدت على رأسه وثيابه وبدت سوداء قذرة .. وكان ينظر الينا ثم الى الحبل الذي يلف جسده ويمنعه من الحركة .. كان قيدا قاسيا احكم ياسين شده ، وكان اليهودي يتأوه كلما التف الحبل عاصرا جسده الضئيل ، بينما كان ياسين يصر بأسنانه غيظا وهو يحكم الوثاق ويتمتم بكلمات سريعة مقتضبة .

ـ تأوه ، لا ادري ماذا سنفعل بك .. لو قتلناك في المعركة لكان خيرا لنا .. اننا لن نستطيع قتلك بعد وانت هكذا ضعيف اعزل ، ومع ذلك يبدو وانه من الرائع حقا ان نتركك تتعذب ، وان تحس وطأة الالم تسحق كيانك .. لانكم لا تعرفون مقدار الالم الذي سببه اجرامكم في شعبنا !

✶

قال احمد وهو ينفخ في فوهة مدفعه :

ـ متى نباشر الضربة الثانية ؟

ـ بعد ساعة حين يختفي البدر تماما !

وتمدد ياسين على العشب وهمس برقة :

ـ سوف نعود الى فلسطين .. اجلس انا وحبيبتي تحت شجرة برتقال في بيارتنا الخضراء .. وتعود امي تعنى بزهور الحديقة !

ثم اردف وعيناه عالقتان بالنجوم :

ـ أتذكرون المستعمرة اليهودية التي هاجمناها ليل البارحة ؟ لقد كان هناك شباك للزهور وفيه رجل .. ولقد احرقت البستان والرجل بأكثر من قنبلة .. انهم يريدون الليل ولا شيء غير الليل ، وقد جاؤوا لزرع الموت فليحصدوا ما زرعوه !..

ونظر فجأة الى الاسير اليهودي ثم استوى جالسا وقرب المطرة من فمه وشرع يسقيه . وعاد عامر بعد جولة استكشاف بسيطة ، ثم ضغط بيديه على قنبلة مشدودة الى حزامه الجلدي .. واطمأن كل منا الى سلاحه ، ثم انطلقنا ووجهتنا مستعمرة يهودية في الشرق .. واقترب عامر من الاسير ، ففتح عينيه بذعر واخذ يرتجف ! فقلت لعامر :

ـ يكفي ، انه اعزل .. وينبغي ان نحترم القوة !..

فاقترب عامر من اليهودي وعيناه تأكلانه :

ـ هل تسمع ما يقول ؟ انه يقول ينبغي ان نحترم القوة .. سنة ١٩٤٨ وقتلتم شبانها بعد معركة غير متكافئة ضدكم وضد الخيانة .. ولقد عصبوا عيني بخرقة سوداء مثل نفوسهم وشدوني الى عمود ، وجمعوا حولي الحطب ! الا ان قائدهم امرهم فجأة ان يتوقفوا، ثم سألني ان ادله على فتيات المدينة .. ولقد اراد ان ينتهك اعراضهن امامي !..

لقد صلبوني ، اما انت فانني لا استطيع ان اجد لك صليبا .. لاننا لسنا فجرة !...

✶

كان الليل حالكا وبدا كل شيء حولنا اسود مثل غراب .. واشرفنا على المستعمرة من التلال القريبة ، ثم تفرقنا .. والتفت عامر الى الاسير اليهودي وخاطبه قائلا :

ـ اني آمرك ان تظل تنظر الى الامام فستشهد السنة من اللهيب تتصاعد ، وبيوتا كثيرة ترتفع في الفضاء ثم تهوى على من فيها . اني آمرك ان تظل تنظر حتى يحرق اللهيب عينيك ، وتسحق جسدك الدنس كل الاعمدة التي ستنهار !

وصوب الرفاق بنادقهم في اتجاه واحد .. وضغطت القبضات الفولاذية على القنابل المكورة !

واقترب ياسين ، بدوره ، من اليهودي وقال وهو يمسح جراحه :

ـ ستشهد الان مأساتكم .. فلتصفق روحك الان الما للمشاهد التي ستتوالى امام ناظريك .. فانك لا تستطيع ان تفعل شيئا .. كلكم لا تستطيعون ان تفعلوا شيئا ، فان انبياء البطولة قد ولدوا على ارضنا !

وضاع صوته في دوي القنابل التي انطلقت .. وفي الدمار الذي بدأ ينتشر .. وفي جراح اليهودي التي لم تكف عن النزيف .

وجيه رضوان

صدر حديثا

سعادتك بيدك

اتريد السعادة حقا ؟

لا تبحث عنها بعيدا . انها فيك في تفكيرك المبدع لكل خير وفي ارادتك الخلاقة ، وفي تصميمك على بلوغها . ودليلك في سيرك اليها .

قراءة هذا الكتاب

الناشر : دار بيروت